

مُقَدِّمَةُ نَارِ الْحَيَّةِ

فتح العرب مصر عام ٦٤١ ميلادية ؛ ولكنهم لم يغيروا كثيرا في النظام الإداري الذي خلفه فيها العصر البيزنطي ؛ فظل وادي النيل زهاء قرنين من الزمن يحكمه ولاية يعينهم أولياء الأمر في بلاد العرب . على أن عرب مصر في صدر الاسلام كان اتصالهم وثيقا بالحوادث في شبه جزيرتهم ، وبما نشب بين المسلمين فيها من خلافات وحروب ؛ بل قد سار منهم وفد لعب دورا كبيرا في الحوادث التي انتهت بقتل الخليفة عثمان .

ثم كان في وادي النيل بعد ذلك شيعة لعل ، وأنصار معاوية . وأرسل الأول من قبله الى مصر ثلاثة ولاة آخرهم محمد بن أبي بكر ، الذي ارتكب خطأ سياسيا كبيرا بتسييره أنصار معاوية الى الشام ؛ فلم يلبث ابن أبي سفيان ، بعد أن تقوى ساعده بالمدد الجديد ، أن بعث الى وادي النيل بجيش على رأسه عمرو بن العاص . وانتصر جيش الشام ، فاستقر الأمر في مصر لبني أمية . وعاد الى حكمها عمرو سنة ٦٥٨ من قبل معاوية ، الذي كافأه على إخلاصه ودهائه بأن جعل البلد طعمة له بعد عطاء جندها ونفقة ادارتها .

ثم قتل على ، واستتب الحكم للأمويين ؛ فولى مصر من قبلهم بعد وفاة عمرو واحد وعشرون واليا : ولى اثنان منهم الأمر مرتين ، وواحد ثلاث مرات ؛ وحكم واحد منهم البلد نحو تسعة أشهر نائبا عن ابن الزبير الى أن سار الى مصر مروان بن الحكم فطرده منها .

ولما كانت الدولة الأموية عربية بحتة ، فقد كان ولاية مصر فى عهدهما
كلهم عربيا ، كغيرهم من كبار عمال الدولة وموظفيها .

وفى سنة ٧٤٩ قويت الدعوة لبني هاشم . وانتهت بسقوط بني أمية
سنة ٧٥٠ ، واستقام عود الخلافة لبني العباس ، ففرّ الى مصر مروان بن محمد
آخر خلفاء بني أمية ، وتبعه جيش عباسى على رأسه صالح بن على بن عبد الله
ابن عباس ؛ فقتل مروان . وتقلد زمام الحكم صالح بن على ، من قبل
أبي العباس السفاح . وتوالى على مصر حتى سنة ٨٦٨ أربعة وستون حاكما :
ولى أحدهم الأمر ثلاث مرات ، وولى تسعة آخرون الحكم مرتين .

وولاية مصر فى العصر العباسى لم يكونوا كلهم عربيا . فقد طغت على مصر
الصبغة الفارسية ، التى طغت على بقية أجزاء الدولة العربية ؛ إذ قامت الدولة
العباسية على أكثاف الموالى ، فاستعملهم خلفاؤها وقدموهم على العرب .

ولكن نفوذ الجند من الأتراك فى خدمة البلاط العباسى مالبث أن ظهر ،
وأخذ فى الزيادة حتى أصبح بيدهم مقاليد الأمر ، وعزل الخلفاء وتوليتهم ،
واستولوا على أكبر وظائف الدولة ، فأصبح منهم الولاة والعمال . وقدم الى
مصر أول وال تركى الأصل سنة ٨٤٦ .

على أن الامبراطورية العربية كانت من السعة بحيث استطاعت عوامل
الضعف أن تنطرق اليها ؛ فاستقلت بلاد الأندلس ، وتبعها بلاد المغرب
حيث نشأت عدة دويلات مستقلة . ولم يبق من بلاد شمال أفريقيا تابعا
للخلافة العربية إلا بلاد أفريقية ، التى تعرف اليوم ببلاد تونس . وما لبث
هارون الرشيد أن رأى عجزه عن حكم هذه البلاد لكثرة ثوراتها ، والفتن فيها ؛

فأقطعها دولة الأغلبة ، التي ظلت تحكم الإقليم معترفة بسُلطان اسمي خليفة بغداد وتدفع له جزية كانت في أكثر الأوقات اسمية^(١) . أما مصر فقد جاء دورها نحو سنة ٨٢٧ ، حين بدأ الخلفاء سنة اقطاعها أولياء عهدهم ، ثم قواد الجند من الترك ؛ ولكن هؤلاء القواد الذين كانوا يمنحون مصر طعمة سائغة لم يكونوا يرغبون في البعد عن حاضرة الدولة وبلاط الخليفة ، وما فيهما من دسائس ومكائد ، ولم يكن الخليفة نفسه يتوق الى ابتعادهم عنه ، خشية أن يعملوا على الاستقلال ، وشق عصا الطاعة . ولذا ترى أن هؤلاء الولاة لم يحكموا مصر بأنفسهم ، وإنما كانوا يبعثون اليها بعالم من قبلهم . وكان هؤلاء يرسلون اليهم ما يتبقى من الخراج والجزية بعد دفع نفقات الدولة والادارة . وكان أصحاب الاقطاع يدفعون الى بيت مال الخليفة مما يتلقونه من مصر مبالغ كانت لتفاوت قيمتها .

وفي سنة ٨٦٨ تقلد حكم مصر القائد التركي بابك . فاستخلف عليها أحمد بن طولون ، الذي أسس فيها أسرة لعبت في التاريخ الفنى لوادى النيل دورا كبيرا .

وقد كان طولون (والد أحمد) مملوكا تركيا من بلاد منغوليا، أرسله حاكم بخارى الى بلاط بغداد ، فظل يرتقى حتى صار قائدا لحرس الخليفة .

وولد أحمد بن طولون ببغداد في سبتمبر سنة ٨٣٥ ، ثم هجر الخليفة المعتمد مدينة المنصور ، وانتقلت الحكومة الى سامرا (العاصمة الجديدة) ، حيث تلقى

(١) راجع : YONDERHEYDEN : La Bérberie Orientale sous la Dynastie de Benou-I-Aglab

ابن طولون علومه العسكرية . وأخذ - فضلا عن ذلك - بقسط وافر من العلوم الدينية . ثم وفد ابن طولون الى مصر من قبل بابك ، الذى كان قد تزوج أرملة طولون بعد وفاة زوجها .

ولما توفى بابك ولى الخليفة على مصر قائدا تركيا آخر كان ابن طولون قد تزوج ابنته فنبئت بذلك قدم ابن طولون وزاد نفوذه وأصبحت الاسكندرية تابعة له ، بعد أن كان لها حاكم مستقل عنه .

ثم كانت وفاة هذا الوالى الحديد إيذانا بفساد الأمر بين ابن طولون وبلاط بغداد . فأرسل أولو الأمر فى العراق جيشا لإخضاع ابن طولون . وكان فشل هذا الجيش ، وعجزه عن التقدم الى مصر ، مشجعا لأحمد بن طولون على المغالاة فى مطامعه ؛ فشق عصا الطاعة ؛ وسير لإخضاع سورية حملتين ؛ ومد سلطاناه على جزء من آسيا الصغرى . فأصبح خطرا يهدد الخلافة . وأحس بذلك الموفق أخو الخليفة وصاحب الأمر فى الدولة ، وكان قد انتهى من إخضاع ثورة الزنج ، ورأى أنه بالرغم من ذلك ، لا قوة له على مواجهة ابن طولون ؛ فعمل على مصالحته ؛ غير أن مرضا أصاب ابن طولون أرغمه على ترك سورية والرجوع سريعا الى مصر حيث توفى سنة ٨٨٤ .

وظن بلاط الخليفة أن موت ابن طولون إيذان بانقراض دولته . ولكن سلسلة من الانتصارات أحرزها ابنه وخليفته خمارويه على جيوش العراق أرغمت الخليفة العباسى على مسالته ، وعقد معاهدة اعترف فيها بخمارويه ، وبورثته مدة ثلاثين سنة من بعده ولاية على مصر وسورية وبعض أقاليم آسيا الصغرى وأرمينيا .

وتوفى الخليفة المعتمد بعد ذلك ببضع سنوات . وتزوج خلفه المعتضد بقطر الندى ابنة نهارويه ، وزعم كثير من المؤرخين أن الخليفة قصد بذلك إفقار بنى طولون ؛ فقد كان نهارويه مسرفا جد الإسراف ، تواقا الى الأبهة والعظمة ؛ فجهرز ابنته بما لم تجهز به عروس من قبل . واستنزف ذلك وغيره خزائن الدولة حتى تركها خاوية، حين قتله خدمه سنة ٨٩٦ .

وتطرق الاضمحلال الى دولة بنى طولون بعد وفاة نهارويه . وولى البلاد بعده ابنه جيش ؛ فتنكر لقواد أبيه ولجبار رجال الدولة ، وانغمس فى اللهو والشراب ، نخلع وقتل . وخلفه أخوه هرون بن نهارويه ؛ ولكن الداء كان قد تمكن فى إدارة البلاد، وظهرت روح الثورة فى الجند، وانقسموا فرقا يؤيد كل منها قائدا من قواد الجيش ، وزاد الطين بلة أن ظهر القرامطة فى الشام وهددوا مصر، فسار اليهم جيش منها عاد بالهزيمة .

وكان الخليفة المعتضد قد توفى وخلفه المكتفى ؛ فأرسل هذا لإخضاع القرامطة جيشا على رأسه محمد بن سليمان ، أوقع بهم هزيمة كبرى . ثم واصل السير الى مصر، ولم يلق فيها مقاومة تذكر، وحاول المصريون إنقاذ الموقف بقتل هرون وتولية عمه شيبان بن أحمد بن طولون ؛ ولكن ولاية هذا لم تزد عن بضعة أيام ، واستطاع محمد بن سليمان وجنوده القضاء على الدولة الطولونية وأصبحت مصر ثانية إقليما تابعا للخلافة العباسية، ترسل اليه الولاة من قبلها^(١) .

(١) راجع : Zaky M. Hassan: Les Tulunides, Etude de l'Egypte Musulmane à la

fin du IX^e Siècle 898-905 (Paris 1933).